الجزء الحادى والعشرون

سورة العنكبوت

من الآية ٤٦ حتى نهايتها الآية ٦٩

وسور
الروم - لقمان - السجدة

وسورة الأحزاب

من بدايتها حتى الآية ٣٠

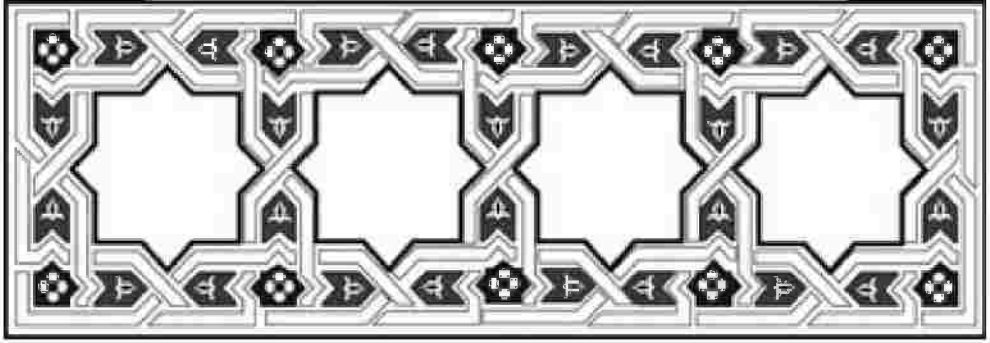

﴿ وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (٤٦) وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ (٤٧) وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ (٤٨) بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ (٤٩) ﴾

قال محمد الغزالى: [أهل الكتاب صنفان: صنف لا يضنّ علينا بحق الحياة والعبادة والدعوة، بل يدعنا وشأننا، وهؤلاء لهم ما لنا وعليهم ما علينا، ولا تُخفر لهم ذمة، ولا ينقض لهم عهد! وصنف آخر يضيق بنا وبكتابنا ونبينا، ويسعى لنقض بنائنا، وتنكيس لوائنا، ومن حقنا أن نتحفظ من هؤلاء ونحتاط! ولا يكلفنا عاقل أن نأمن لهم! وسورة العنكبوت تتضمن إرشادًا عامّا فى معاملة هؤلاء وأولئك ﴿ وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (٤٦) وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ (٤٧) ﴾ ووددت لو أن «لجنة» من المحايدين العقلاء نظرت فى العلاقة بين الشرق والغرب على امتداد التاريخ الماضى والمعاصر، وكشفت عن مثيرى الحروب الدامية بينهما، خصوصًا المدة من زحف الرومان على العالم، ووقوع غرب آسيا وشمال إفريقية فى أيديهم. أكان الإسلام معتديًا حين حرر هذه الأقطار من براثنهم؟ ثم عاود أبناؤهم وأشياعهم الهجوم فى الحروب الصليبية الأولى، فرُودُّا على أعقابهم بعد مئات السنين من الكر والفرّ.

ثم عادوا فى العصر الحديث بدءًا من هجوم ناپوليون على مصر، وموسولينى على ليبيا والحبشة، وتأليفه وزارة للمستعمرات الإسلامية! ثم اجتاح الفرنسيون دول المغرب كلها، واجتاح الإنجليز وادى النيل، وسقطت القارة الإسلامية فى يد أهل الكتاب، فهل نحن

المعتدون فى هذه الحروب الآثمة؟[1] . واليوم تسعى جماهير المسلمين إلى العيش بدينها فيحرمون منه، وتكال لهم التهم، فأين الإنصاف فى هذا المسلك؟ .

والمسلمون يؤمنون بكل سطر فى كتابهم، ويودون العمل به، فلماذا يمنعونهم منه؟ ويتطاولون على صاحبه؟ ويتهمونه بالكذب؟ ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ (٤٨) بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ ﴾ [العنكبوت: ٤٨-٤٩] .

وقد شنوّا فى هذه الأيام هجومًا عامّا ليردُّوا المسلمين عن دينهم ويقلِّصوا العمل به فى أضيق نطاق حتى يتم القضاء عليه شكلاً وموضوعًا!!] ﴿ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ ﴾ بالتربص والاعتداء والتطاول على دينكم وقرآنكم . . ﴿ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا ﴾ القرآن ﴿ وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ ﴾ بالتوراة والزبور والإنجيل ﴿ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ ﴾ ونحن لرب العالمين ﴿ مُسْلِمُونَ ﴾ أسلمنا وجوهنا لله ﴿ وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ ﴾ ولقد أنزلنا إليك يا محمد القرآن كما أنزلنا الكتب السابقة، مصدقًا لها، وآمرًا بمجادلة أهل الكتاب بأحسن ما يكون، وبأن تقولوا لهم بأننا آمنا بكتبكم ورسلكم، وإلهنا وإلهكم واحد، مع استثناء الظالمين منهم من ذلك ﴿ فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ ﴾ فالذين آتاهم الله علم الكتاب من اليهود والنصارى يؤمنون بمقدم رسول اسمه أحمد ﴿ وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِ ﴾ كعبد الله بن سلام وبعض اليهود، وقيل ومن أهل مكة وغيرهم من يؤمن به ﴿ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ ﴾ قال قتادة: [إنما يكون الجحود بعد المعرفة] ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ ﴾ كنت يا محمد أميّا لا تعرف القراءة ولا الكتابة حتى يُظن فيك أنك تحكى قصص وعبر وحكم الأولين التى قرأتها، فلو كنت تقرأ وتكتب ﴿ إِذًا لَّارْتَابَ ﴾ لتشكك ﴿ الْمُبْطِلُونَ ﴾ أهل الباطل والجدال العقيم ﴿ بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ ﴾ ما القرآن إلا آيات

---

(١) فى الواقع ليس العالم العربى والعالم الإسلامى هما فقط ضحية أوروبا، فقد امتد نهبها وسلبها للعالم منذ صارت أقوى سلاحًا، فغزت أمريكا، وإفريقيا، وآسيا، ولخص شعار الإنجليز ذلك النهب والسلب فى «الثلاثة سيز Three C'S» أى: المسيحية، الحضارة، التجارة Christianity, Civilization, Commerce وقبل حلول منتصف القرن العشرين، عندما أشعلت أوروبا حربها الثانية وأطلقت عليها الحرب العالمية الثانية وجرجرت العالم إليها، كانت أوروبا تحتل ما يقرب من ثلثى يابسة الكرة الأرضية، لتنهب وتسلب شعوب العالم، وتستحل دمها وأرواحها، وبالطبع تقول إن ذلك لمصلحة تلك الشعوب، أو لنشر الحضارة المسيحية، أو للدفاع عن مصالحها.

واضحات فى قلوب أهل العلم ﴿ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلاَّ الظَّالِمُونَ ﴾ وما يرفض آياتنا تكبرًا وعنادًا إلا الظالمون.

* * *

﴿ وَقَالُوا لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٥٠) أَوَ لَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٥١) قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٥٢) ﴾

قال الكافرون لولا أُنْزِلَت على محمد معجزات تقنعنا لآمنا به! قل لهم يا محمد ﴿ إِنَّمَا الآيَاتُ عِندَ اللَّهِ ﴾ إنما المعجزات تنزل بأمر الله وحكمته، وما أنا إلا رسول بعثنى الله لأنذركم ﴿ أَوَ لَمْ يَكْفِهِمْ ﴾ يا محمد أننا أنزلنا عليك هذا القرآن رحمة للعالمين بما فيه من عقيدة صافية تطمئن لها القلوب، وبما فيه من شريعة تهدى الناس جميعًا إلى الصراط المستقيم، وبما فيه من تذكير للبشر بنشأتهم الأولى، وتكليف الله لهم بعبادته بحمل أمانة الخلافة، وبأنهم سيموتون ويُبعثون للحساب، قل لهم يا محمد حسبى الله، يكفينى أن الله شاهد على أدائى للرسالة، يعلم كل ما يحدث فى السماوات والأرض ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ ﴾ بعبادة غير الله وكفروا برب العالمين ﴿ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾.

* * *

﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (٥٣) يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ (٥٤) يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٥٥) ﴾

يتحداك الجاحدون بأن تأتيهم بالعذاب الذى تنذرهم به، ولولا أن الله حدد له موعدًا وأمهلهم حتى يعودوا إلى الحق المبين لأنزل بهم العذاب، ولسوف يأتيهم العذاب فجأة وهم لا يشعرون ﴿ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ ﴾ ويوم ينزل بهم، تحيط بهم جهنم ﴿ يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ ﴾ يغمرهم ويغطيهم ﴿ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ ﴾ حيث لا مفر لهم منه، ويقال لهم ﴿ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾.

* * *

﴿ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ (٥٦) كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ (٥٧) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ (٥٨) الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٥٩) وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٦٠) ﴾

﴿ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ لا تخافوا ولا تهنوا إذا ما ضيقَ عليكم الآخرون فى عبادة ربكم ﴿ إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ ﴾ هاجروا فى أرض الله ـ ﴿ وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ﴾ [النساء: ١٠٠] ـ ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ﴾ ثم إلى الله الرجوع للحساب ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ ﴾ لنسكننهم فى غرفات ومقامات فى الجنة التى ﴿ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾ جزاء ما عملوا فى الدنيا، وصبروا على طاعة الله وصبروا على أنواع البلاء إيمانًا بالله وتوكلاً عليه وطمعًا فى رضاه، فلا تخافوا فى الدنيا من افتقاد الرزق لأنه بيد الله وحده، وكم من دابة يرزقها الله، فكيف بمن كرّمه وجعله خليفة فى الأرض ﴿ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾.

* * *

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ (٦١) اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٦٢) وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ(٦٣) ﴾

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾ فكيف يرفضون عبادة الله والامتثال لأمره؟ وهو باسط أرزاق العالمين، يعطى من يشاء كيفما يشاء ﴿ وَيَقْدِرُ لَهُ ﴾ ويضيق على من يشاء؛ لأنه عليم بما يصلح العبد وما يفسده، وحكيم فى تقديره ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾ قل يا محمد ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ على نعمه، ومنها أنهم يعرفون تلك النعم ﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ لا ينتفعون بعقولهم، ولا تمنعهم معارفهم ومداركهم من اتباع أهوائهم.

* * *

﴿ وَمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٦٤) فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ (٦٥)

لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٦٦) أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ (٦٧)

الحياة الدنيا مجرد ﴿ لَهْوٌ وَلَعِبٌ ﴾ محدود كمّا وكيفًا وكلّ متعها إلى زوال، وكل زائل زائف، ولا يبقى من الحياة الدنيا إلا الأعمال ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (٧) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (٨) ﴾ [الزلزلة] فاعلموا يا أولى الألباب ﴿ إِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ ﴾ الآخرة هى الحياة الحقيقية الدائمة، وحيوان على وزن فعلان، تفيد المبالغة. وبعض الناس إذا أبحروا بالسفن وتعرضوا للخطر ﴿ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ لجأوا إلى ربهم الحق بالدعاء الحق ﴿ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴾ فبدلاً من حمد الله وعبادته بحق يعودون للشرك، فسوف يرون جزاء عملهم يوم القيامة ﴿ أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا ﴾ أيتغافل أهل مكة عما وهبهم الله من نعمة الأمن والأمان وتدفق الأرزاق عليهم فى مكة، ذلك الحرم الآمن وسط بلاد العرب عديمة الأمن؟ ﴿ وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ﴾ يخطف القوى الضعيف، ويستحل ماله ودمه ﴿ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ ﴾ أبعد كل هذا يؤمنون بعقائدهم الباطلة ﴿ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴾ أبما وهبه لهم من حرم آمن ونبى أمين وكتاب كريم يجحدون؟!

* * *

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْكَافِرِينَ (٦٨) وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ (٦٩) ﴾

ليس هناك أحد أكثر ظلمًا ﴿ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴾ كمن نسب إليه شريكًا، أو نسب إليه قولاً زائفًا ﴿ أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ ﴾ كذَّب بالرسول والرسالة، إن فى جهنم ﴿ مَثْوًى ﴾ مقامًا للكافرين، أما الذين ﴿ جَاهَدُوا فِينَا ﴾ جاهدوا النفس والهوى والشيطان وأعداء الدين ﴿ لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾ لنرشدنَّهم وندلهم على الطرق المستقيمة إلى عزة الدنيا ونعيم الآخرة، وإن ﴿ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴾.

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ الٓمٓ (١) غُلِبَتِ الرُّومُ (٢) فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ (٣) فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ (٤) بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٥) وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٦) يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ (٧) ﴾

﴿ الٓمٓ (١) ﴾ ارجع لشرح الحروف المُقَطَّعة فى أول سورة البقرة ﴿ غُلِبَتِ الرُّومُ (٢) ﴾ قهرت فارس الروم ﴿ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ ﴾ تعددت أقوال المفسرين فى ذلك، فموقع المعركة بين أذرعات وبصرى، وهو قريب من البحر الميت، فقال بعضهم أقرب الأرض إلى بلاد فارس، وقال آخرون أقرب الأرض إلى الشام، أو أقرب الأرض إلى مكة، ولكن ظهر مؤخرًا أن أرض الموقعة هى الأدنى تحت سطح البحر(١) ﴿ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ فِي بِضْعِ سِنِينَ ﴾ البضع فى اللغة هو ما بين ثلاث إلى تسع، وقد انتصر الروم على الفرس بعد تلك الموقعة بسبع سنوات ﴿ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ ﴾ يُحكم الله أمره، فى الماضى والحاضر والمستقبل ﴿ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ بِنَصْرِ اللَّهِ ﴾ تعددت أيضًا أقوال المفسرين فى ذلك، فمنهم من قال

(*) إلا الآية ١٧ فمدنية.

(١) ارجع لشرح زغلول النجار فى «*تفسير الآيات الكونية فى القرآن الكريم*» الجزء الثانى صفحة٤٢٧ - ٤٣٠، ولموسوعة *بريتانيكا* (من إصدارات مكتبة الشروق الدولية)؛ حيث ذكرت عن البحر الميت أنه أخفض جسم مائى عن سطح الأرض؛ إذ يصل انخفاضه إلى نحو ١٣١٢ قدمًا (نحو ٤٠٠ متر).

نصر الروم على الفرس، ومنهم من قال تحقق كلمة الله فى القرآن الذى تنبأ بالغيب، وقال آخرون إن ذلك وافق انتصار المسلمين يوم بدر، فهذا هو سبب فرح المؤمنين[1] ﴿يَنصُرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ فالنصر من عند الله وحده ـ ﴿إِن يَنصُرْكُمُ اللَّهُ فَلا غَالِبَ لَكُمْ﴾ [آل عمران: ١٦٠] ـ ﴿وَعْدَ اللَّهِ لا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (٦)﴾ وهل هناك من هو أصدق من الله قيلا؟ ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ ويعملون ويسعون وراء ذلك الظاهر ﴿وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾.

***

﴿أَوَ لَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم مَّا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ (٨) أَوَ لَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٩) ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاؤُوا السُّوأَى أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ (١٠)﴾

﴿أَوَ لَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم﴾ أو لم يتفكر الكافرون فى أنفسهم كيف بدأهم الله بنطفة وأن مصيرهم جيفة فى القبور، فيعرفوا قدرهم ويسارعوا للسمو بأنفسهم استجابة لتكليف خالق الأكوان لهم بالخلافة على الأرض، بدلاً من أن تستعبدهم أهواؤهم وشهواتهم ﴿مَّا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ فانتهاء أمرهم بالموت وهلاكهم بالدهر، دون أن يكون هناك بعث وحساب هو الباطل الذى يريدون تقريره والعمل على أساسه، ولذلك يجحدون شهادتهم الأولى بربوبية الواحد الأحد، ويعطلون مداركهم، ألم يعتبروا بالأقوام السابقة التى كانت أشد منهم قوة وعمرانًا، ثم أهلكهم الله بظلمهم عندما كذبوا رسلهم وآيات الله، واستهزءوا بها بدلاً من أن يعتبروا ويثوبوا إلى ربهم؟

***

﴿اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (١١) وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ (١٢) وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءُ وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ (١٣) وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ

(١) ارجع لكتاب «نحو تفسير ملهم للقرآن الكريم»، رانيا رجب شعبان، ص ١٠٤ - ١١٣ـ مكتبة الشروق الدولية ـ ٢٠٠٥م.

﴿ (١٤) فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ (١٥) وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ (١٦) ﴾

بدأ الله خلق الإنسان فى الدنيا ﴿ ثُمَّ يُعِيدُهُ ﴾ بعد موته ﴿ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ يوم القيامة للحساب ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ ﴾ أصل الإبلاس: الحزن الناشئ من شدة اليأس، فالمعنى أن المجرمين فى الدنيا يصيبهم يوم الحساب اليأس الشديد من أن ينالوا أىّ خير، أو أن ينجوا من العذاب ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ (١٤) ﴾ يتفرق المجرمون عن بعضهم البعض، ويتفرق المؤمنون عن الكافرين ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴾ يسعدون، ويكرَّمون ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ (١٦) ﴾ حاضرون فى العذاب.

* * *

﴿ فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ (١٧) وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ (١٨) يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ (١٩) وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ (٢٠) ﴾

فسبحوا الله واحمدوه ليل نهار، وقد روى عن ابن عباس (ﷺ): أن الآية جامعة للصلوات الخمس ﴿ تُمْسُونَ ﴾ صلاة المغرب والعشاء ﴿ تُصْبِحُونَ ﴾ صلاة الفجر، و ﴿ عَشِيًّا ﴾ صلاة العصر، و ﴿ تُظْهِرُونَ ﴾ صلاة الظهر ﴿ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ ﴾ يُخرج المؤمن من الكافر، ويُخرج الكافر من المؤمن، كذلك خلقكم من عدم، ثم أماتكم فى قبوركم إلى يوم البعث ثم يبعثكم أحياء ثانية، والأمثلة غير ذلك كثيرة فى عموم أحوال الناس الدنيوية والدينية، وغيرها ﴿ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ فبعد أن تكون يابسة لا زرع فيها ينزل عليها المطر فتحى الأرض وتخضر ﴿ وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ ﴾ بقدرة الله من قبوركم أحياء ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ﴾ فأبوكم آدم خلق من تراب ﴿ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ ﴾ تتكاثرون وتملأون الأرض حياة وحركة بعد أن كنتم ترابًا ثم نطفًا.

* * *

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٢١) وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ

﴿ إِنَّ فِى ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ (٢٢) وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّ فِى ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (٢٣) ﴾

﴿ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا ﴾ خلق الله الناس من نفس واحدة، منها ذكر ومنها أنثى، يسكن كلٌّ منهما للآخر، وجعل بينهما مودة ورحمة، فيأتلفان ويتآلفان لتكوين اللبنة الأولى والأساسية فى المجتمع، وتنتسب عائلة كلّ زوج للأخرى، مما يعمل على نشر نسيج من المودة والرحمة فى المجتمع كله، ويؤهله لحمل تكاليف الخلافة[1]، إن فى كل ما سبق آيات لقوم يتفكرون ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ فى نظام محكم بديع ﴿ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ ﴾ لغاتكم ولهجاتكم ﴿ وَأَلْوَانِكُمْ ﴾ أبيض، أسود، أحمر، أصفر، كل هذه آيات دالة على قدرة الله المتناهية للناس أجمعين ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ﴾ فالنوم مثل لموتكم، والاستيقاظ مثل لبعثكم، وفى نومكم راحة وتجديد لنشاطكم ﴿ وَابْتِغَاؤُكُم مِّن فَضْلِهِ ﴾ فمن الناس من يسعى على رزقه نهاراً، ومنهم من يكون عمله ليلاً، فقد يسر الله هذا وذاك للناس ﴿ إِنَّ فِى ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾.

***

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِى بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِى ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٢٤) وَمِنْ آيَاتِهِ أَن تَقُومَ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الأَرْضِ إِذَا أَنتُمْ تَخْرُجُونَ (٢٥) وَلَهُ مَن فِى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ (٢٦) وَهُوَ الَّذِى يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الأَعْلَىٰ فِى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢٧) ﴾

يرى الناس البرق فى السماء ﴿ خَوْفًا ﴾ من الصواعق ﴿ وَطَمَعًا ﴾ فى نزول المطر الذى يحيى الأرض الميتة، وفى ذلك عبر ومواعظ لأصحاب العقول، ففى السماء الثواب، وفى السماء العقاب ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَن تَقُومَ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ بِأَمْرِهِ ﴾ يجرى ويعمل كلّ من فى السماء والأرض من خلق الله فى نظام محكم بديع، و﴿ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الأَرْضِ إِذَا أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴾ من القبور يوم البعث والحساب ﴿ وَلَهُ مَن فِى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ ﴾ منقادون خاضعون مستسلمون فى الدنيا، وإن عصاه بعضهم فبما ترك الله لهم من خيار،

(١) قارن ذلك بطبيعة بعض الحيوانات، والمفصليات مثل العناكب، وفيها يأكل أفراد العائلة بعضها البعض، فيكون شعارها نفسى فقط، أنا فقط، وقد استعار بعض بنى الإنسان ذلك من الحيوان فقال: أنا ومن بعدى الطوفان! أو قال بطريقة من الالتفاف والدوران: أنا أولاً! ومعناها الضمنى: أنا وسحقًا للآخرين.

وبقدر ما آتاهم من قدرة على ذلك، وفى الآخرة المسألة أوضح ﴿ وَهُوَ الَّذِى يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ﴾ وهو الذى يخلق الإنسان وغيره من عدم، ثم يعيده بعد موته أو انعدامه ﴿ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ وذلك بمقاييس الناس التى تقول كيف يبعثهم الله بعد أن صاروا ترابًا، فكلّ أمر هو هين فى قدرة الله، وأمره إذا أراد شيئًا أن يقول له كن فيكون ﴿ وَلَهُ الْمَثَلُ الأَعْلَىٰ فِى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ فالكمال لله وحده ﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾.

***

﴿ ضَرَبَ لَكُم مَّثَلاً مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاءَ فِى مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٢٨) بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ (٢٩) ﴾

ضرب الله لكم مثلاً من أنفسكم بسؤال استنكارى مضمونه النفى: هل هناك من بين عبيدكم من هو شريك لكم فى أموالكم، فتخافونه كما تخافون أنفسكم، ولذلك تشركونه فى أموركم؟ وقد كانوا يشركون بالله مع اعترافهم أن شركاءه من الأصنام والأنداد عبيد له ﴿ بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ المشركون ﴿ أَهْوَاءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ بغير دليل أو برهان ﴿ فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ ﴾ بسبب إصراره على التكبر والجحود ﴿ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴾.

***

﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِى فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (٣٠) مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَلا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٣١) مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ (٣٢) ﴾

التزم يا محمد الدين القويم، المائل عن انحراف الآخرين، والذى يقودك ومن اتبعك على الصراط المستقيم، وفقًا للفطرة التى فطر الله الناس عليها ﴿ لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ﴾ قال أكثر المفسرين إن المقصود لا تبديل لدين الله، وقالت قلة إن المقصود لا تبديل لفطرة الناس، وهذا خبر فى معنى النهى، ومعنى النفى أيضًا، أى لا تبدلوا الفطرة السليمة التى خلق الله الناس عليها، تلك الفطرة التى بينتها آية الأعراف ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِى آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ﴾ [١٧٢]، وبينها حديث «كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه» متفق عليه، وتكون الفطرة هنا بمعنى الدين، مما يزيل الخلاف الظاهرى فى التأويل، ومن قال إن الخبر بمعنى النفى أيضًا قصد أنه مهما انحرف

الإنسان والمجتمع بفطرته، فدائمًا هناك بقية باقية من الفطرة السليمة، تنادى النفس بالرجوع لله وطريقه المستقيم، إلا من ختم الله على قلبه عقابًا على إصراره على التكبر والجحود، والله أعلم ﴿ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ﴾ ذلك هو الدين المستقيم، ولكن أكثر الناس يعطلون فطراتهم ومداركهم ليتبعوا أهواءهم، ولا يعلموا عاقبة اغترارهم بالدنيا وانحرافهم عن دين الله ﴿ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ﴾ راجعين إلى الله بالتوبة ﴿ وَاتَّقُوهُ ﴾ بعدم عصيانه ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ الذين تفرقوا وتحزبوا تعصبًا وسعيًا وراء مصالح دنيوية.

***

﴿ وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ (٣٣) لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (٣٤) أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ (٣٥) وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ (٣٦) ﴾

تتحدث الآيات عن سلوك كثير من الناس، إذا أصابهم ضرر رجعوا إلى ربهم يسألونه الفرج، فإذا رفع عنهم الضرر، وأنزل عليهم خيراً وفضلاً، عادوا لشركهم وجحدوا نعمة الله، فسيعلمون جزاء كفرهم ﴿ أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ (٣٥) ﴾ هذا استفهام إنكارى، فليس لديهم برهان على صحة شركهم ﴿ وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً ﴾ من بسط الرزق، والأولاد والصحة ﴿ فَرِحُوا بِهَا ﴾ زهوًا وتكبرًا وبطرًا، بدلاً من حمد الله وشكره ﴿ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴾ ييأسون من رحمة الله بدلاً من أن يراجعوا أنفسهم ويستغفروا ربهم ويصلحوا ما أساءوه من عمل.

***

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٣٧) فَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٣٨) ﴾

إذا رأى الناس فى كلّ زمان ومكان أن الرزق بيد الله، فلماذا لا يسعون إليه بالحلال والكرامة والعزة؟ يبذلون وسعهم وجهدهم، يتقنون عملهم، ويوفون بوعودهم ومسئولياتهم تجاه أنفسهم وأسرهم ومجتمعهم وكلّ من حولهم؟ ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ وإذا كان الأمر كذلك، فعليهم كفالة ذوى القربى والمساكين وأبناء السبيل ﴿ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾.

***

﴿ وَمَا آتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلا يَرْبُو عِندَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ (٣٩) اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَلِكُم مِّن شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٤٠) ﴾

قال بعض المفسرين إن تلك الآية هى الخطوة القرآنية الأولى فى تحريم الربا، وقد بينت أن زيادة أموال المقرض بالربا ليس لها وجه شرعى، ثم فارقت بينها وبين الزكاة، التى يضاعف الله مال من آتاها. وما دام الله هو خالق الأكوان والبشر وأرزاقهم وآجالهم، فلماذا لا يتبع البشر شرع ربهم؟ لماذا يشركون فى شرعهم ما هو ضره أقرب من نفعه؟.

***

﴿ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٤١) قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ (٤٢) فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لاَّ مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ (٤٣) مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ (٤٤) لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِن فَضْلِهِ إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ (٤٥) ﴾

ظهر فساد الناس فى البر والبحر، قديمًا وحاضرًا ومستقبلاً، بأعمالهم. وقال بعض المفسرين إن المقصود بالفساد هو النوازل الطبيعية من زلازل وبراكين وأمراض، وما يشبه ذلك، ويمكن الجمع بين المعنيين. فسيروا يا أيها الناس فى الأرض واعتبروا بعاقبة السابقين، والذين كان أكثرهم من المشركين. وقد سألت أم سلمة (رضي الله عنها): أنهلك وفينا الصالحون يارسول الله؟ فأجابها «نعم، إذا كثر الخبث» متفق عليه ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ ﴾ يا محمد أنت ومن اتبعك ﴿ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ ﴾ الإسلام ﴿ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لاَّ مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ ﴾ يوم الحساب الذى لا يمكن لأحد أن يرفضه أو يهرب منه ﴿ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴾ يتفرقون، فريقًا فى الجنة وفريقًا فى السعير ﴿ مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ ﴾ لا على أحد سواه، أما الذين آمنوا وحرصوا على فعل الخيرات فى الدنيا ﴿ فَلأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴾ طريقهم إلى الجنة.

***

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٤٦) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلاً إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَانْتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ (٤٧) ﴾

إن فى تحريك الرياح لآية لقوم يعقلون، كيف يدفعها الله من منطقة إلى أخرى؟ وبأىّ حجم تتحرك؟ وكيف تجلب معها الأمطار لتسقطها على أرض؟ وتتجاوز أرضًا لتسقط الأمطار على أرض أخرى؟ وكيف تلقح بها النباتات والزروع المختلفة؟ كذلك تتحرك السفن فى البحار بدفع الرياح، وحتى السفن الحديثة تتحرك بدفع المحركات التى تعتمد على سحب الهواء لحرق الوقود داخلها ثم طرده منها، ولولا خواص الهواء لما قامت بذلك ﴿ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ ﴾ سواء من ماء الأمطار أو الانتقال والنقل خلال البحار والأنهار، وصيد الأسماك واللؤلؤ والمرجان، وغير ذلك ﴿ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ وقد أرسلنا رسلاً من قبلك لأقوامهم، وأيدناهم بالحجج البينة، فمن رفضها تكبرًا وجحودًا انتقمنا من إجرامه ﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾.

***

﴿ اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (٤٨) وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ (٤٩) فَانْظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٥٠) وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ (٥١) ﴾

الله هو الذى يُرسل الرياح فتحرك السحاب وتنشره فى السماء ﴿ فَيَبْسُطُهُ ﴾ كيف يشاء فى المكان الذى يشاء ﴿ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا ﴾ قطعًا متفرقة ﴿ فَتَرَى الْوَدْقَ ﴾ المطر يخرج من خلال السحب ينزله على من يشاء من عباده ليفرح ويستبشر به بعد أن كانوا ﴿ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ ﴾ يائسين، فانظر كيف يحيى الله الأرض الهامدة الجدباء فتنبت من كلّ زوج بهيج، كذلك الله قادر على إحياء الموتى ﴿ وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا ﴾ خبيثة على النبات فتسببت فى أذيته وحولته إلى جاف أصفر ﴿ لَظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ ﴾ وهذا هو حال الكافرين يبتليهم الله بالرخاء فيكفرون بالله، ثم يبتليهم بالجدب والقحط فيستمرون فى كفرهم.

***

﴿ فَإِنَّكَ لا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ وَلا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ (٥٢) وَمَا أَنتَ بِهَادِ الْعُمْيِ عَن ضَلالَتِهِمْ إِن تُسْمِعُ إِلاَّ مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ (٥٣) اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ (٥٤) ﴾

من أمات قلبه وعطل مداركه من سمع وإبصار، لن يستجيب لك، وإنما يسلم وجهه لله من يؤمن به استجابة لفطرته وإعمالاً لكافة مداركه، فعندما تأتيه آيات الله على يديك، يجسد ما قالته آية النور ﴿ نُورٌ عَلَىٰ نُورٍ ﴾ وليتدبر أولو الألباب أن قوتهم وشدتهم إلى زوال وضعف، فلا تغرهم، ولا تغرهم الدنيا، وليعملوا لآخرتهم حيث شباب لا يهرمون بعده، وصحة لا تعتل، وجزاء واسع من ﴿ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ ﴾.

***

﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ (٥٥) وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ (٥٦) فَيَوْمَئِذٍ لاَّ يَنفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ وَلا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ (٥٧) ﴾

يوم الحساب، يعرف المجرمون أن ما لهثوا وراءه من متع الدنيا الفانية، وباعوا له آخرتهم الباقية لم يكن سوى متاع ساعة واحدة قصيرة في عمر الآخرة الطويلة ﴿ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ ﴾ كانوا يُصرفون عن الحق، ويقول لهم ﴿ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالإِيمَانَ ﴾ قال الشوكاني: [قيل الملائكة، وقيل الأنبياء، وقيل علماء الأمم، وقيل مؤمنو هذه الأمة، ولا مانع من الحمل على الجميع] لقد لبثتم ما يقوله الحق في كتابه، أي في علمه وقضائه، من وقت خلقكم إلى يوم البعث الذي كنتم تنكرونه، ولن ينفع اعتذاركم عن ظلمكم ولا محاولتكم استرضاء ربكم.

***

﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِن جِئْتَهُم بِآيَةٍ لَّيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ مُبْطِلُونَ (٥٨) كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ (٥٩) فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لا يُوقِنُونَ (٦٠) ﴾

والمتصفح للقرآن يرى كم الأمثال التى ضربها الله للناس وتنوعها ليتبعوا هداه، ويؤمنوا برسله ورسالاته، وكلما ﴿جِئْتَهُم بِآيَةٍ﴾ بينة تهدى المشركين قالوا ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ مُبْطِلُونَ﴾ قالوا: ما يقوله الأنبياء باطل وكذب ﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ (٥٩)﴾ الذين يرفضون بعد كلّ هذه الآيات العودة لفطرهم الأصلية، واستخدام مداركهم التى حباهم الله بها، والتى تعيدهم لشهادتهم الأولى، فيعبدون الله خالقهم وربهم، ومثلهم مثل الذين قالوا مهما تأتنا بآية فلن نؤمن لك، ومثل الذين قالوا قلوبنا غلف لا تنفذ إليها رسالتك، وفى آذاننا ثقل وصمم يمنعنا من سماعك ـ وأولئك مثل الذين تصدق عليهم آية الأعراف ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لاَّ يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾ [١٤٦] فيطبع الله على قلوبهم، ولن يؤمنوا حتى يروا عذاب جهنم ـ ﴿فَاصْبِرْ﴾ يا محمد إن ما يعدك الله به من ظهور الإسلام ويوم الحساب حق آت لا ريب فيه ﴿وَلا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لا يُوقِنُونَ﴾ قال مخلوف: [استخف فلان فلانًا، أى استجهله حتى حمله على اتباعه فى الضلال] فلا تدع يا محمد أولئك الكافرين يحملونك على اتباعهم فى كفرهم، والتزم صراط ربك المستقيم.

***

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ الٓمٓ (١) تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ (٢) هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ (٣) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (٤) أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٥) ﴾

﴿ الٓمٓ (١) ﴾ ارجع لشرح الحروف المُقَطَّعة فى أول سورة البقرة. ننزل عليك يا محمد آيات القرآن الحكيم، تهدى المحسنين برحمة الله إلى الفلاح والفوز المبين، أولئك الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة، ويوقنون بالبعث للقاء الله يوم الحساب.

***

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ (٦) وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٧) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ (٨) خَالِدِينَ فِيهَا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٩) ﴾

وهناك صنف من الناس ﴿ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ ﴾ يفضل الحديث الباطل الذى يلهى عن سبيل الله، بغير علم، ويستهزأ بآيات الله ﴿ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ قال بعض المفسرين:

(*) إلا الآيات ٢٧، ٢٨، ٢٩ فمدنية.

إن النضر بن الحارث القرشى كان يشترى كتبًا فيها أخبار ملوك الفرس ثم يقُصها على قريش فى مجالسها، ويقول: هذا خير مما يتلوه عليكم محمد، وقال آخرون: إنه كان يسلط المغنيات على الناس ليمنعهم من سماع الرسول (ﷺ)، ولا مانع من أنه كان يجمع العملين، وكأن هذه الآية ناطقة بما يحدث اليوم، فتتكلف بعض الجهات الملايين والمليارات لتصرف المسلمين عن دينهم بمختلف الوسائل المعاصرة ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا﴾ هذا الصنف من الناس إذا سمع آيات القرآن ﴿وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا﴾ تكبرًا وجحودًا ﴿كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا﴾ صممًا مانعًا عن الاستماع، فأنذره بما ينتظره من العذاب الأليم، أما ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ فإن الجنة مأواهم خالدين فيها وعد الله الحق ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

***

﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ (١٠) هَٰذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (١١)﴾

رفع السماوات وما بها بغير أعمدة، وألقى فى الأرض جبالاً تمنعها من الاهتزاز والاضطراب عند دورانها، وراجع فى ذلك شرح آيتى [النحل: ١٥]، [الأنبياء: ٣١] ﴿وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ﴾ نشر فيها من كلّ أنواع الدواب، وأنزل من السماء مطرًا، فأنبتت الأرض ﴿مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ من النبات، ويمكن حمل المعنى على كلّ الدواب، بما فى ذلك الإنسان ﴿هَٰذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي﴾ أيها المشركون ﴿مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ﴾ ممن أتخذتموهم شركاء ﴿بَلِ الظَّالِمُونَ﴾ بشركهم فى ضلال وتخبط بيِّن.

***

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ (١٢) وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ (١٣) وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ (١٤) وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (١٥)﴾

تبين الآية أن شكر الله من الحكمة، وأن من يشكر يعود شكره لنفسه، ومن يكفر يعود كفره عليه، فالله غنى حميد. ويعظ لقمان ابنه قائلاً ﴿ لا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ ثم توصى الآية الإنسان بوالديه، حتى أنها تقرن شكر الله بشكر الوالدين، وتذكره بحمل أمه له جنينًا فى بطنها وما تكبدته فى ذلك ﴿ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ ﴾ وفطامه عن الرضاع ﴿ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴾ وإن بذلا أقصى جهودهما فى دفعك إلى الشرك ﴿ فَلا تُطِعْهُمَا ﴾ فى ذلك ﴿ وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا ﴾ وصاحبهما ولا تهجرهما، وقدم المعروف لهما ﴿ وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ﴾ واتبع سبيل من رجع إلىَّ بالإخلاص والطاعة، واعلم أن مرجعكم جميعًا إلىّ لأخبركم بما قدمتم فى دنياكم.

* * *

﴿ يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ (١٦) يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ (١٧) وَلا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلا تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ (١٨) وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ الأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ (١٩) ﴾

تستأنف الآيات وصايا لقمان الحكيم لابنه: اعلم يا بنى أن الله لا يغيب عنه شىء ولو كان صغيرًا مثل حبة الخردل التى يُضرب بها المثل فى الصغر ـ ولو كانت فى غياهب الأرض أو فى السماء، وذلك كناية عن أن الله لا يغيب عنه صغائر الأعمال، ويجازى عليها، فهو ﴿ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴾ يابنى ﴿ أَقِمِ الصَّلاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ ﴾ قرنت الآية الصلاة بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وهذه إحدى الآيات القليلات التى تذكر الصلاة ولا تذكر معها الزكاة، وإن كان ذكر الزكاة يدخل فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، واصبر على ما أصابك من أذى، خاصة عند عند الأمر بالمعروف والنهى من المنكر، فإن ذلك من مقتضيات الحياة الدنيا وابتلاءاتها، وجاء فى الحديث القدسى: «إذا وجهتُ إلى عبدى مصيبة فى بدنه أو ماله أو ولده ثم استقبل ذلك بصبر جميل، استحييت منه يوم القيامة أن أنصب له ميزانًا أو أنشر له ديوانًا» رواه الترمذى ﴿ وَلا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ ﴾ لا تمل وجهك عنهم تكبرًا وتعاظمًا ﴿ وَلا تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا ﴾ فرحًا وبطرًا وخيلاء ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ وجاء فى الحديث: «لا يدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال ذرة من كبر» فقال رجل: إن الرجل

يحب أن يكون ثوبه حسنًا، ونعله حسنًا؟ قال: «إن الله جميل يجب الجمال، الكبر بَطَرُ الحق وغمط الناس» رواه مسلم ﴿ وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ ﴾ توسط فيه غير مختال ولا ضعيف ذليل ﴿ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ الأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴾ اخفض من صوتك؛ لأن الصوت العالى المزعج كصوت الحمير.

***

﴿ أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلا هُدًى وَلا كِتَابٍ مُّنِيرٍ (٢٠) وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ (٢١) وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ(٢٢) ﴾

سخر الله للناس ما فى السماوات والأرض، وكرم الله بنى آدم، وآتاه كل ما يُمكِّنه من القيام بأمانة خلافة الله على الأرض، ومع ذلك تجد من الناس من يجادلون فى الله بلا علم اكتسبوه، ولا هدى من الله عن طريق رسله، ولا كتاب أنزله الله، ويصدون الناس عن سبيل الله، وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله، خالقكم ورازقكم، الذى سخر لكم ما فى السماوات والأرض، وفضلكم على كثير من العالمين، رفضوا كل ذلك، واحتجوا بأنهم يتبعون آباءهم، أولو كان ذلك الضلال الشيطانى يقذف بهم إلى عذاب جهنم؟ ومن يفوض أمره لله وحده وهو محسن، فقد تعلق وتمسك بأوثق الأسباب إلى الله الحق المبين، وكلكم راجعون إلى الله.

***

﴿ وَمَن كَفَرَ فَلا يَحْزُنكَ كُفْرُهُ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٢٣) نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلاً ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ (٢٤) وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ (٢٥) لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (٢٦) ﴾

فلا تحزن يا محمد على من كفر، فهو راجع إلينا لنجازيه بما عمل فى حياته الدنيا، ونحن نعلم ما يدور فى صدره، ومتاعه فى الدنيا قليل، ثم عذابه فى الآخرة غليظ. ثم تبين الآية أن أولئك الكافرين يعلمون من خلقهم، ولكنهم لا يريدونه أن يتدخل فى حياتهم! وهو الغنى عنهم، وهم الفقراء إليه، ولكنهم لا يعلمون.

***

﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٧) مَا خَلْقُكُمْ وَلا بَعْثُكُمْ إِلاَّ كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (٢٨) ﴾

لو صارت كلّ أشجار الأرض أقلامًا وتحولت مياه البحر حبرًا ويمده ﴿ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ ﴾ وذكرت الآية السبعة على سبيل المبالغة ﴿ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ ﴾ قال سيد قطب: [إن البشر يكتبون علمهم، ويسجلون قولهم، ويمضون أوامرهم، عن طريق كتابتها بأقلام ـ كانت تتخذ من الغاب والبوص ـ يمدونها بمداد من الحبر ونحوه. لا يزيد هذا الحبر على ملء دواة أو ملء زجاجة! فها هو ذا يمثل لهم أن جميع ما فى الأرض من شجر تحول أقلامًا، وجميع ما فى الأرض من بحر تحول مدادًا، بل إن هذا البحر أمدته سبعة أبحر كذلك.. وجلس الكتاب يسجلون كلمات الله المتجددة، الدالة على علمه، المعبرة عن مشيئته.. فماذا؟ لقد نفدت الأقلام ونفد المداد. نفدت الأشجار ونفدت البحار.. وكلمات الله باقية لم تنفد، ولم تأت لها نهاية.. إنه المحدود يواجه غير المحدود. ومهما يبلغ المحدود فسينتهى؛ ويبقى غير المحدود لم ينقص شيئًا على الإطلاق.. إن كلمات الله لا تنفد؛ لأن علمه لا يحد، ولأن إرادته لا تكف، ولأن مشيئته ـ سبحانه ـ ماضية ليس لها حدود ولا قيود.

وتتوارى الأشجار والبحار، وتنزوى الأحياء والأشياء؛ وتتوارى الأشكال والأحوال. ويقف القلب البشرى خاشعًا أمام جلال الخالق الباقى الذى لا يتحول ولا يتبدل ولا يغيب؛ وأمام قدرة الخالق القوى المدبر الحكيم ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾] تعددت أقوال المفسرين فى سبب نزول تلك الآية، ومدارها على تحدى اليهود أو أهل مكة لقدرة الله، ومحاولة اليهود احتكار الوحى والحكمة وادعاء اصطفاء الله لهم على كلّ الخلق إلى يوم الدين، مهما انحرفوا وأشركوا وكفروا. ﴿ مَا خَلْقُكُمْ وَلا بَعْثُكُمْ إِلاَّ كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾ ما خلقكم ابتداء، ولا بعثكم بعد الموت فى قدرة الله إلا كخلق نفس واحدة أو بعثها، والله ﴿ سَمِيعٌ ﴾ لما يقولون ﴿ بَصِيرٌ ﴾ بما يعملون.

* * *

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٢٩) ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ (٣٠) ﴾

ألم تروا أيها الناس كيف يغير الله حال الدنيا من ليل إلى نهار ومن نهار إلى ليل، ويطيل أحدهما على حساب الآخر، ثم يعود به لما كان عليه، وهكذا حال الدنيا، وحالكم فيها لتتعظوا ولا تغتروا، فتحمدوا عند النعمة، وتصبروا عند البلاء، وسخر الشمس والقمر دائبين فى الحركة لتنظيم حياتكم الدنيا إلى أجل مسمى، وهو خبير بما تعملون، وليس من شركائكم من يفعل ذلك، وما كان ذلك ليحدث بدون إله حق، علىّ كبير.

***

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِى فِى الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِى ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (٣١) وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلاَّ كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ (٣٢) ﴾

ألم تروا أيها الناس كيف تجرى الفلك فى البحر بما خلق الله فى صفاتها وصفات البحر والريح، إن فى ذلك لحججًا بينة لكلّ من يصبر على أمانة الخلافة، ويشكر الله على نعمائه. وهناك صنفان من الناس، أحدهما إذا تعرض فى سفره فى البحر لأمواج خطيرة، تاب وأناب إلى الله، فدعاه مخلصًا له الدين، فلما نجاه من البحر، أو مما هو مثل ذلك الخطر على البر، اقتصد فى سبيله إلى الله، أى استقام، وأصلح فى عمله، فلم يكفر ولم يشرك، وقال الحسن: معنى مقتصد مؤمن متمسك بالتوحيد والطاعة، ومنهم صنف آخر كفر بآيات الله وغدر، والختار هو الغدار، من الختر، أى الغدر والخديعة.

***

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لاَّ يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ (٣٣) إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى الأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (٣٤) ﴾

يا أيها الناس أطيعوا ربكم ولا تعرضوا أنفسكم لعقابه إن عصيتموه، و﴿ اخْشَوْا يَوْمًا لاَّ يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ ﴾ فلا ينفع المرء إلا عمله ﴿ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ﴾ بالبعث بعد الموت للحساب ﴿ فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ﴾ لاتخدعنكم الدنيا بمباهجها وأضوائها الزائلة ﴿ وَلا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴾ ولا تغرنكم أنفسكم فتصرفكم عن طاعة الله

ولا تتمنوا على الله الأمانى، بل آمنوا واعملوا الصالحات لتفوزوا برضاه، واعلموا ﴿ إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ ﴾ وقتها وما يحدث فيها وبعدها ﴿ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ ﴾ فبإذنه يتجمع بخار الماء، وبإذنه يتحول إلى سحاب ثم يسقط على من وما يشاء بقدر ما يشاء، وهو وحده الذى يعلم ما فى الأرحام، أتخرج مولودًا أم حيضًا، ذكرًا أم أنثى؟ وإن كان مولودًا فما هو شكله؟ وعمله؟ ومتى يحين أجله ﴿ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ﴾ من علم وعمل ﴿ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ﴾ ولا يدرى المرء أين يأتيه الموت ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ وجاء الحديث:

«إذا أراد الله قبض روح عبد بأرض جعل له فيها ـ أوبها ـ حاجة» رواه الترمذى.

❋❋❋

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الٓمٓ (١) تَنزِيلُ الْكِتَابِ لا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ (٢) أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (٣) ﴾

﴿ الٓمٓ ﴾ ارجع لشرح الحروف المُقَطَّعة فى أول سورة البقرة ﴿ تَنزِيلُ الْكِتَابِ لا رَيْبَ فِيهِ ﴾ أنزل الكتاب رب العالمين، لا شك فى ذلك ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ﴾ أم هنا بمعنى بل، أى إنهم يقولون إن محمدًا قد اختلقه وألّفَهُ ﴿ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ﴾ فأبلغ رسالتك لأهل مكة ومن حولها الذين لم يأتهم نذير من قبلك ﴿ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴾.

* * *

﴿ اللَّهُ الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِىٍّ وَلا شَفِيعٍ أَفَلا تَتَذَكَّرُونَ (٤) يُدَبِّرُ الأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ (٥) ذَلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٦) ﴾

يبين الله للناس آياته فى الكون، ويُدرك العاقلون منهم أنه لا يقوم من نفسه، ولا يعمل من نفسه، ولابد من قوة قادرة خيّرة وراء ذلك، وتلك القوة فطرت الناس على الإيمان بها، ﴿ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾ قد يكون ذلك اليوم ألف سنة، أو خمسين ألف سنة، أو غير ذلك، والله أعلم ﴿ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ﴾ علا فوقه علوّا يليق بجلاله

(*) إلا الآيات من ١٦ - ٢٠ فمدنية.

وانظر الشرح فى الآيات [الأعراف: ٥٤]، [يونس: ٣]، [الرعد: ٢]، [طه: ٥] ﴿ مَا لَكُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ ﴾ ليس لكم غير الله نصير ﴿ وَلَا شَفِيعٍ ﴾ يشفع لكم فيرحمكم ﴿ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴾ شهادتكم الأولى، ونعم الله عليكم، والله هو الذى ﴿ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ﴾ أى يدبر أمر الدنيا بحكمته السماوية ﴿ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ ﴾ يصعد ﴿ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾ هذا من أمور الغيب، فلا نخوض فيه، ويظهر منه نسبية الزمان، والله هو ﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾.

* * *

﴿ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِن طِينٍ (٧) ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلَالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ (٨) ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ (٩) ﴾

أحسن الله ـ بمقاييسه ـ خلق كل شىء ﴿ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِن طِينٍ ﴾ لأن آدم أبا البشر خُلق من طين ﴿ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ ﴾ ذريته ﴿ مِن سُلَالَةٍ ﴾ من خُلاصة ﴿ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ ﴾ ماء الرجل وماء المرأة، ثم ﴿ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ ﴾ فانظر إلى قدرة الله التى تجعل من الماء المهين بشرًا، واحمد الله على تكريمه لك، وأنه جعلك خليفة على الأرض، ولا تكن خصيمًا مبينًا، فما أنت إلا نطفة فى البداية وجثة وجيفة فى النهاية، إلى يوم البعث والحساب. بعد ذلك جعل الله لذلك الماء المهين ﴿ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ ﴾ أفلا يستحق ذلك الشكر؟.

* * *

﴿ وَقَالُوا أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُم بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ (١٠) قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ (١١) ﴾

وقال المنكرون للبعث ﴿ أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ ﴾ هل يعقل أننا إذا صرنا ترابًا وضعنا فى الأرض ﴿ أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ هل يمكن أن نحيا من جديد؟ ﴿ بَلْ هُم بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ ﴾ للحساب والجزاء ﴿ كَافِرُونَ ﴾ جاحدون ورافضون، فمن خلقكم أول مرة قادر على بعثكم، قل لهم يا محمد ﴿ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ ﴾ المكلف بقبض الأرواح، ثم أنتم جميعًا راجعون إلى ربكم.

* * *

﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ (١٢) وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (١٣) فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (١٤) ﴾

ترى المجرمين المتكبرين المتجبرين فى الحياة الدنيا يوم القيامة ﴿ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ ﴾ مطأطئين الرؤوس خزيًا وخوفًا يقولون ﴿ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا ﴾ ما كنا متعامين عنه، وسمعنا ما كنا نتصامم عنه، فارجعنا إلى الدنيا مرة أخرى فسنعمل الصالحات ﴿ إِنَّا مُوقِنُونَ ﴾ مصدقون بما جاءت به الرسل من البعث والحساب، أو موقنون بأننا إذا رجعنا للدنيا ثانية فسنؤمن ونعمل الصالحات ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا ﴾ قال الماتريدى [لو شئنا لآتينا كلّ نفس ما عندنا من اللطف (الذين يهديهم)، الذى لو كان منهم الاختيار لذلك لاهتدوا، لكن لم نعطهم ذلك اللطف، لَمَّا لم نعلم منهم كون ذلك الاختيار (أى لأننا علمنا أنهم لا يختارون الهداية)]، وقال الزمخشرى: [على طريق الإلجاء (الإجبار) والقسر، ولكننا بنينا الأمر (أمر الاهتداء) على الاختيار]، وقال مخلوف: [لو شئنا إيتاء كلّ نفس رشدها وتوفيقها إلى الإيمان لآتيناها إياه]، وقال سيد قطب: [ولو شاء الله لجعل لجميع النفوس طريقًا واحدًا. هو طريق الهدى، كما وحد طريق المخلوقات التى تهتدى بإلهام كامن فى فطرتها، وتسلك طريقة واحدة فى حياتها من الحشرات والطير والدواب؛ أو الخلائق التى لا تعرف إلا الطاعات كالملائكة. لكن إرادة الله اقتضت أن يكون لهذا الخلق المسمى بالإنسان طبيعة خاصة، يملك معها الهدى والضلال؛ ويختار الهداية أو يحيد عنها؛ ويؤدى دوره فى هذا الكون بهذه الطبيعة الخاصة، التى فطره الله عليها لغرض ولحكمة فى تصميم هذا الوجود. ومن ثم كتب الله فى قدره أن يملأ جهنم من الجنة ومن الناس الذين يختارون الضلالة، ويسلكون الطريق المؤدى إلى جهنم] ﴿ وَلَٰكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي ﴾ ثبت وتحقق قولى، وقيل وجب قولى واستحقوا عقابى ﴿ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ من كلّ من تكبر وجحد الحق المبين وسعى فى الأرض فسادًا من الناس والجن ﴿ فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ﴾ ما دمتم لم تعملوا حسابًا لهذا اليوم ﴿ إِنَّا نَسِينَاكُمْ ﴾ فى العذاب، فأنتم خالدون فى جهنم بسبب سوء أعمالكم.

* * *

﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ (١٥) تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (١٦) فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٧) ﴾

إنما يؤمن بآيات الله ﴿ الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا ﴾ سقطوا ساجدين لله خاضعين متذللين، والسجود رمز للطاعة ﴿ وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ﴾ نزهوا ربهم عن كل نقص وحمدوه على كلّ النعم ﴿ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ عن الانقياد له ولا يستكبرون على خلق الله، ويقومون الليل دعاءً وذكرًا وصلاةً ﴿ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾ ويحرصون على الإنفاق فى سبيل الله ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾ جاء فى الحديث القدسى « قال الله تعالى: أعددت لعبادى الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر» رواه مسلم والترمذى، وذلك جزاء عملهم فى الدنيا.

* * *

﴿ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُونَ (١٨) أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَىٰ نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٩) وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ (٢٠) وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٢١) وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ (٢٢) ﴾

لا يسوى الله فى الجزاء بين المؤمن الذى يعمل الصالحات والفاسق الذى يعصى الله، فالأول مأواه الجنة، والثانى مأواه النار ﴿ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا ﴾ أعادتهم ملائكة جهنم الغلاظ الشداد، وقالوا لهم ﴿ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴾ بل وفى حياتهم الدنيا ﴿ لَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَىٰ ﴾ عذاب الدنيا الذى تتعدد صوره ـ ولكن أكثر الناس لا يعلمون، يعلمون ظاهرًا من الحياة الدنيا، وقد قال عز من قائل ﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ﴾ [المدثر: ٣١] ـ ﴿ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ ﴾ قبل العذاب الأكبر فى جهنم ﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ عن الجحود فيتوبون ويستغفرون ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ ﴾ ممن يذكِّره الرسل والصالحون بآيات ربه، فإذا به يتولى معرضًا ومستخفًا ورافضًا ﴿ إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴾.

* * *

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُن فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَائِهِ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ (٢٣) وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ (٢٤) إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (٢٥) ﴾

قال محمد الغزالى : [ذكّر الله نبيه محمداً بأن المرسلين من قبله لقوا العنت وتحملوا الشدائد فليصبر كما صبروا ، والمعنى أن القيادة لا تتم لأهلها إلا إذا جمعوا بين الصبر واليقين] ﴿ فَلَا تَكُن فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَائِهِ ﴾ تعددت أقوال المفسرين ، فقال الشوكانى : [قال الحسن : إن معناه : ولقد آتينا موسى الكتاب فكُذِّب وأوذى ، فلا تكن فى شك من أنه سيلقاك مالقيه من التكذيب والأذى ، فيكون الضمير فى لقائه عائداً على محذوف ، والمعنى : من لقاء ما لاقى موسى] ، وقال مخلوف : [أى لقاء موسى الكتاب بقبول ورضًا وتحمل لشدائد الدعوة به ، فكن مثله فى ذلك] ، وقال محمد الغزالى : [قال ابن عاشور فى تفسيره إن (المقصود بـ) اللقاء هنا الجهاد ، وكأن الله يقول لنبيه : كما كابد موسى كيد فرعون وعوج قومه ، فستلقى ما لقى من خصومك ومن قومك . . . لكن العاقبة للتقوى والنصر للمؤمنين] ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ ﴾ من بنى إسرائيل ﴿ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا ﴾ قادة بالخير يدعون الناس إلى شرعنا ﴿ لَمَّا صَبَرُوا ﴾ حين صبروا على العمل بالتوراة ﴿ وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ أما ما اختلفوا فيه ، فحكمه إلى الله ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ .

* * *

﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ (٢٦) أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ (٢٧) ﴾

أولم يتعظ أهل مكة ومن حولها من كثرة ما أهلكنا القرى الظالم أهلها على مرّ القرون ، أولم يمروا على مساكنهم وهى خاوية على عروشها ؛ كمنازل أقوام شعيب وهود وصالح ولوط ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴾ أخبار هؤلاء الظالمين فيتعظون ويتجنبون أفعالهم التى كانت سببًا فى إهلاكهم؟ ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ ﴾ ألا يرى هؤلاء الجاحدون قدرة الله حين يسوق المطر إلى الأرض ﴿ الْجُرُزِ ﴾ الجرداء التى لا زرع فيها ولا ماء ، فتخضر الأرض وتنبت الكلأ فترعى فيها أنعامهم ، ويستمتعون بجمالها ، ويأكلون منها ﴿ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴾ .

* * *

﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٨﴾ قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾

﴿ الْفَتْحُ ﴾ تعنى الفصل بين المتخاصمين، وتعنى الانتصار على الأعداء والمخالفين، وتبين الآية التالية أن المقصود هنا هو يوم الحساب والفصل بين المؤمنين والظالمين. ودائمًا أبدًا، فى كلّ زمان ومكان، يقول الجاحدون متى وعد الله؟ متى عقاب الله؟ متى الآخرة والبعث؟ فتجيبهم الآية: فى ذلك اليوم ستؤمنون بالرسل ورسالاتهم، ولكن لن ينفعكم إيمانكم، ولن يؤجل عنكم العذاب، ثم تأمر الرسول (ﷺ) بالإعراض عنهم بعد أن أبلغ الرسالة ﴿ وَانتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ﴾.

❊❊❊

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١﴾ وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٢﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿٣﴾ ﴾

تبين الآيات كم وكيف الضغوط التى تعرض لها النبى (ﷺ) والمؤمنون من الكافرين والمنافقين ليداهنوا ويلينوا فى الدين، وقال محمد الغزالى: [الأمر والنهى المتجهان إلى رسول الله (ﷺ) هما زيادة تثبيت له، كما تقول للمتفوق لا تتراخ! فهو ما فرط فى تقوى، ولا هادن الكفر والنفاق، ولا اتبع إلا الوحى، ومن أسمائه المتوكل، فإذا أُمر بالتوكل فهو استدامة للحال].

* * *

﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ ﴿٤﴾ ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥﴾ ﴾

تنهى الآية عن عادات جاهلية، كأن يقول الرجل لزوجته ظهرك على حرام كظهر أمى، وأن يدعى أبوته لمن تبناه، وتأمر ﴿ ادْعُوهُمْ لآبَائِهِمْ ﴾ انسبوهم لآبائهم هو أعدل عند الله ﴿ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِى الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ ﴾ ولا إثم عليكم فيما أخطأتم فى نسبه ولكن الإثم فى تعمدكم النسب غير الصحيح ﴿ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾.

* * *

﴿ النَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ وَأُولُوا الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلاَّ أَن تَفْعَلُوا إِلَىٰ أَوْلِيَائِكُم مَّعْرُوفًا كَانَ ذَٰلِكَ فِى الْكِتَابِ مَسْطُورًا (٦) وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا (٧) لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا (٨) ﴾

ترشد هذه الآية المؤمنين للإيمان الكامل، الذى يكون فيه النبى (ﷺ) أولى فى الاتباع والحفظ والمراعاة من أنفسهم، وجاء فى صحيح البخارى أن عمر (رضي الله عنه) قال: يارسول الله، والله لأنت أحب إلى من كلّ شىء إلا من نفسى، فقال (ﷺ): «لا يا عمر، حتى أكون أحب إليك من نفسك»، فقال: يارسول الله، والله لأنت أحب إلى من كل شىء حتى من نفسى، فقال (ﷺ): «الآن يا عمر»، وفيه يروا أزواجه بمثابة أمهاتهم، ثم ترشد المؤمنين لحق أولى الأرحام بينهم، وأنه مُقدم فى الميراث وفى الولاية على غيرهم، وبهذا نسخ حكم المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار فى أول الهجرة[1]. واستثنت الآية فعل المعروف مع الأولياء من غير ذوى الأرحام ﴿ كَانَ ذَٰلِكَ فِى الْكِتَابِ مَسْطُورًا ﴾ كان ذلك مكتوبًا فى القرآن، وقيل فى اللوح المحفوظ، ومن ثم القرآن. واذكر يا محمد أنا أخذنا من الأنبياء، ومنك أنت ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى، وأولئك ـ على المشهور ـ هم أولو العزم من الرسل (صلى الله عليهم وسلم أجمعين)، أخذنا منهم ميثاقًا مشددًا على إبلاغ رسالته ﴿ لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ ﴾ ليسأل الله الرسل عن صدق من أُرسلوا إليهم، فيجازيهم عنه أحسن الجزاء، وفى المقابل ﴿ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾.

* * *

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا (٩) إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ

(١) وذلك بعد أن اعتدلت أحوال المهاجرين الاقتصادية، فلم يعد هناك مبرر لأن يحمل الأنصار أعباءهم المالية.

الأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا (١٠) هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيداً (١١) ﴾

هذه الآيات حتى الآية ٢٧ تتحدث عن غزوة الأحزاب، وكان سبب هذه الغزوة أن زعماء اليهود حرضوا قريشًا وقبيلة غطفان ضد محمد (ﷺ) والمسلمين، ولما أجابوهم، طاف وفد اليهود على القبائل الأخرى يحرضونهم، ويشجعونهم بأن قريشًا وغطفان سيحاربون المسلمين، فالنصر مضمون، والغنيمة كبيرة، فأقبلت قريش ومن معها من الأحزاب فى عشرة آلاف مقاتل.. وقيل اثنى عشر، فقد جاءت قريش ومعها: بنو أسد، وغطفان، وبنو عامر، وبنو سليم، ومن اليهود بنو النضير، وانضم إليهم من داخل المدينة بنو قريظة الذين نقضوا ميثاقهم مع النبى (ﷺ) ﴿ إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ ﴾ جاؤكم من أعلى الوادى ومن أسفله، وتحتمل الآية أن قريش ومن معها جاءوا لاستئصال المسلمين من خارج المدنية، وانضم إليهم بنو قريظة من داخل المدينة، فكأنما الأعداء جاءوا من الأمام ومن الخلف، أو من أعلى ومن أسفل. علم رسول الله (ﷺ) بمسيرة زعماء بنى النضير، وقريش وغطفان ومن والاهم نحو المدينة لاستئصال المسلمين، فخرج ومعه ثلاثة آلاف مقاتل وجعلوا جبل سلع خلفهم، وأشار سلمان الفارسى (رضي الله عنه) بحفر خندق حول المدينة، اشترك الرسول (ﷺ) مع المسلمين فى حفره؛ لذلك سميت غزوة الخندق.. استمر التراشق بالنبال أكثر من عشرين ليلة، وحدثت مصارعة بين علىّ بن أبى طالب وعمرو بن ود فارس الجزيرة الذى صرعه علىّ.. ولقد بلغ الرعب من قوة العدو أن زاغت أبصار بعض المسلمين ﴿ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ ﴾ وأساء ضعاف الإيمان والمنافقون الظن بالله ﴿ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا ﴾ وفى هذا الغزو ﴿ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ وأىّ بلاء، عشرة آلاف مقاتل عازمين على استئصال المسلمين وسبى ذراريهم ﴿ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيداً ﴾.

* * *

﴿ وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلاَّ غُرُوراً (١٢) وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلاَّ فِرَاراً (١٣) وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلاَّ يَسِيراً (١٤) ﴾

وعند ابتلاء المنافق؛ سرعان ما يظن السوء بربه، ويقول ﴿مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلاَّ غُرُوراً﴾ إلا خداعًا وقولاً باطلاً، وقالت طائفة من المنافقين: لا مقام لكم فى الخندق أمام تلك الجيوش الغازية، فارجعوا لبيوتكم، وتحججت طائفة منهم فقالت: إن بيوتنا مكشوفة للعدو، فترد عليهم الآية ﴿وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلاَّ فِرَاراً﴾ فمقامهم فى الخندق هو الذى يحمى بيوتهم، ولو رجعوا لبيوتهم ودخل الغزاة المدينة من جوانبها وسألوهم الارتداد عن الإسلام ومقاتلة المسلمين ﴿لآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلاَّ يَسِيراً﴾ لسارعوا فى الكفر ولم يترددوا إلا وقتًا قصيرًا.

***

﴿وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ لا يُوَلُّونَ الأَدْبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولاً (١٥) قُل لَّن يَنفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذاً لاَّ تُمَتَّعُونَ إِلاَّ قَلِيلاً (١٦) قُلْ مَن ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُم مِّنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءاً أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلا نَصِيراً (١٧)﴾

ولقد سبق أن عاهد المنافقون رسول الله (ﷺ) ﴿لا يُوَلُّونَ الأَدْبَارَ﴾ عند قتال المعتدين ﴿وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولاً﴾ قل لهم يا محمد ﴿لَّن يَنفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ﴾ إذا ما حضر أجلكم ﴿وَإِذاً لاَّ تُمَتَّعُونَ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ وهى مدة حياتكم القصيرة، وقل لهم من يجيركم من الله ﴿إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءاً أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلا نَصِيراً﴾.

***

﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَالْقَائِلِينَ لإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلاَّ قَلِيلاً (١٨) أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُوْلَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً (١٩) يَحْسَبُونَ الأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِن يَأْتِ الأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِي الأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنبَائِكُمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُم مَّا قَاتَلُوا إِلاَّ قَلِيلاً (٢٠)﴾

إن الله يعلم المثبطين النفوس عن قتال المعتدين ﴿وَالْقَائِلِينَ لإِخْوَانِهِمْ﴾ من سكان المدينة ﴿هَلُمَّ إِلَيْنَا﴾ انضموا إلينا، واتركوا الخندق والقتال ﴿وَلا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ لا يمارسون

الشدة وقتال العدو إلا قليلاً ﴿ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ﴾ بخلاء عليكم بالتأييد والنصيحة ﴿ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ ﴾ واقترب التلاحم فى القتال ﴿ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ ﴾ كمن دخل فى إغفاءة الموت ﴿ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ ﴾ وابتعد شبح القتال ﴿ سَلَقُوكُم ﴾ آذوكم ورموكم ﴿ بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ ﴾ حادة وسليطة ﴿ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ ﴾ بخيلة عن قول كلمة الحق والخير ﴿ أُولَٰئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴾ ومن شدة خوفهم وضعف إيمانهم ﴿ يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا ﴾ وإن أتت الأحزاب ثانيًا، ودوا لو أنهم قد غادروا المدينة وتركوكم لهم، بينما يذهبون هم إلى البادية مع الأعراب يسألون ماذا حدث لكم ﴿ وَلَوْ كَانُوا فِيكُم ﴾ فى معسكركم ولم يفروا وجاءت ساعة المواجهة مع العدو ﴿ مَّا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا ﴾ رياءا ونفاقًا.

***

﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا (٢١) وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَٰذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا (٢٢) مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا (٢٣) لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِن شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا (٢٤) ﴾

ومن الناحية الأخرى، ازداد المؤمنون إيمانًا وتسليمًا لله بقدوم الأحزاب الظالمة لقتالهم واستئصالهم، وتيقنوا أنهم على الحق المبين، ويا أيها المسلمون فى كلّ زمان ومكان ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴾ وانظروا ماذا فعل أسلافكم ﴿ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ ﴾ فمنهم من استشهد فى سبيل الله، ومنهم من ينتظر الاستشهاد ﴿ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ﴾ ويجزى الله الصادقين، ويعذب المنافقين إن شاء، أما إن تابوا وأنابوا فإنه يتوب عليهم ويغفرلهم؛ لأنه هو الغفور الرحيم.

***

﴿ وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا (٢٥) وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ

فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا (٢٦) وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَئُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا (٢٧) ﴾

رد الله الأحزاب الكافرة بغيظها، وكفى المؤمنين القتال بأن أرسل ريحًا وجنودًا لم يرها أحد ـ كما بينت الآية التاسعة، و﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ ﴾ [المدثر: ٣١] ـ وهو القوى العزيز، أما يهود بنى قريظة فى المدينة، والذين عاهدوا محمدًا (ﷺ) ألا يقاتلوه، وأنهم معه أمة واحدة ضد كلّ من يعتدى على المدينة، فقد خانوا عهدهم وجهروا بذلك لسعد بن معاذ وسعد بن عبادة (رضي الله عنهما) عندما أرسلهما الرسول (ﷺ) للاستيثاق مما سمعه عن نقض قريظة العهد، أولئك الخونة حاصرهم رسول الله (ﷺ) بعد انصراف الأحزاب ومكثوا فى ﴿ صَيَاصِيهِمْ ﴾ فى حصونهم خمسًا وعشرين ليلة، ثم استسلموا، وحكَّم فيهم سعد بن معاذ (رضي الله عنه) وهو من الأوس حلفاء بنى قريظة، فحكم بقتل مقاتليهم وسبى ذراريهم وغنيمة أموالهم، وأسلم بعضهم فحسن إسلامه(١).

* * *

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ

(١) كالعادة، طعن المستشرقون ومن يستمع لهم ويردد أقوالهم فى قسوة النبى (ﷺ) بقتله مقاتلة بنى قريظة، أى من هم فى سن القتال من الشباب والرجال! ولم يأبهوا لخيانة بنى قريظة وانضمامها للأحزاب التى جاءت لاستئصال المسلمين، وكم كان عدد من قتلوا من المقاتلين؟ لقد وسعهم منزل إحدى الصحابيات، فكم يسع ذلك المنزل؟ عشرين.. ثلاثين.. مائة؟ وغفل أولئك المستشرقون ومن ردد أصداءهم عما تكرر عشرات المرات فى العهد القديم من قتل كلّ من فى المدينة المهزومة، من رجال ونساء وأطفال وشيوخ، وحتى البهائم، فلا تترك القوات الغازية نسمة حية، وذلك الغزو ليس له أىّ مبرر أو سبب إلا أن من يقوم به هو شعب الله المختار، وفى يوم واحد قتلت جيوش شعب الله المختار اثنى عشر ألفًا من سكان المدن، وحتى النساء الأسيرات، فطبقًا للكتاب المقدس أمر نبى الله موسى (ﷺ) بقتلهن! أما القوات الصليبية التى ذبحت فى يوم واحد ثلاثين ألفًا من المسلمين واليهود فى بيت المقدس، فلا يخجل البعض من أن يجد لها العذر ويقول إنها لم تكن حربًا دينية!. وقد كرر شعب الله المختار تلك المذابح مع الفلسطينيين منذ أكثر من ستين عامًا، فى مذابح مشهورة مثل دير ياسين، وعشرات المذابح الأخرى التى دخلت فى طى النسيان، وقتلت القوات الإسرائيلية المعتدية أسرى القوات المصرية فى عدوان ١٩٦٧ على مصر، وقصفت قوات الاحتلال الإسرائيلى فى سيناء مدن القناة، حتى اضطر أهلها لهجرة مساكنهم ومدنهم لبضعة سنين، ولكن كلّ ذلك يدخل فى طى النسيان! وذبحت قوات الكتائب اللبنانية بضع آلاف من الفلسطينيين العزل فى صابرا وشاتيلا فى سبعينيات القرن العشرين، ولم نسمع أحدًا يتكلم عن الإرهاب المارونى أو اليهودى!. وسكتت أوروبا المسيحية عن قوات الصرب الأرثوذكسية وهى تغزو البوسنة وتذبح عشرات الآلاف من المسلمين البوسنويين المدنيين العزل من السلاح، أُرتكبت كثير من تلك المذابح تحت بصر وسمع القوات الدولية التى لم تحرك ساكنًا، والتى منعت وصول السَلاح للبوسنة لتدافع عن نفسها.

سَرَاحًا جَمِيلاً (٢٨) وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا (٢٩) ﴾

جاءت زوجات الرسول (ﷺ) من بيوت سيادة وثراء، ولم يألفن فى حياتهن الأولى إلا رغد العيش، وفوجئن بأن بيته لا يحوى متاعًا، ويعيش على الكفاف، فسألوه نفقة أوسع ومتاعًا أرغد، فنزل وحى السماء ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ ﴾ أعطيكن متعة الطلاق ﴿ وَأُسَرِّحْكُنَّ ﴾ فأطلقكن طلاقًا جميلاً لا ظلم فيه ولا إساءة ﴿ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ فاصبرن على عيشة الكفاف ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ فى الفردوس الأعلى من الجنة.

* * *

﴿ يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا (٣٠) ﴾

هذا حكم الله فى نساء النبى (ﷺ) مضاعفة العذاب، ومضاعفة الأجر، فهن لسن كأحد من النساء.

* * *